مآسي اللغة العربية طيلة الاحتلال الاستعماري ومآثرها

. أ. صالح بن القبي

المقدمة

لم تدخل اللغة العربية الديار المغاربية لأول مرة، كما يعتقده الكثير، في ركاب الفتوحات الإسلامية، بل كانت موجودة بها منذ غابر العصور، وعلى أقل تقدير منذ القرن التاسع قبل الميلاد، أي مع دخول الفينيقيين منطقة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وإنشائهم بها العديد من الموانئ والمدن، كقرطاج بتونس، وقرطة، وسالدي بالجزائر، وسبتا بالمغرب، وقرطبة بالأندلس. وصارت الفينيقية وقتها، لغة الإدارة، والتعليم، والثقافة، تبنتها شعوب المنطقة، وملوك وأمراء نوميديا، ومنهم ماسينيسا، وسيفاكس.

والعربية قديمة قدم الحضارات البشرية، والديانات السماوية. تتقاسم مع باقي اللغات الشرقية السامية، كلا من المنبت، والنطق في مستوى مخرج الأصوات، والأبجدية، والعديد من القواعد النحوية والصرفية. ومن هذه اللغات السرياك، والفينيقية، والعبرية، والآرامية، والحميارية، وكذا الأمازيغية.

ويكون تفاعل هذه اللغات ذات الأصل الواحد، مع اللغة النومدية بمختلف لهجاتها، قد تضاعف مع نزول العديد من الأقوام المشرقية بشمال القارة الإفريقية، ومنهم الفينيقيون أولا، ثم اليهود الناطقون بالعبرية، ثم المسيحيون الأوائل المعتمدون في حديثهم، وطقوسهم على الآرامية لغة المسيح عليه السلام، وهي مزيج من العربية واليونانية.

ومما يؤكد مثلا، التشابه الكبير بين العربية والفينيقية، والأصل المشترك لهما، اللغة الوطنية لجمهورية مالطا، التي صارت هذه السنة، إحدى اللغات الرسمية للاتحاد الأوربي. وهي كلما أزيحت عنها المفردات الإنكليزية، والإيطالية الدخيلة، تجلت في صيغة لغة عربية أصيلة، حافظ عليها أبناء الجزيرة

عبر العصور، كإرث مقدس من أجدادهم الفينيقيين القادمين أصلا، من مدينتي صور، وصيدا. ويرفض المالطيون إلى اليوم بشدة، أن يكونوا مدينين في أداة تخاطبهم، إلى العرب والمسلمين، وكانوا أعداءهم التقليديين، حيث شكلت جزر مالطا عبر التاريخ، القاعدة الأمامية للجيوش المسيحية، ومحط رحال فرسان الكنيسة الصليبيين، القادمين من مختلف المقاطعات الأوربية. ومن أسباب اعتزاز أهالي مالطا، وخيلائهم، أنهم استطاعوا أن يصونوا لغتهم من كل تأثير أجنبي، وحتى من لغات الصليبيين رغم طول إقامتهم بينهم، والحلف المقدس الجامع بينهم. وما زال المالطيون إلى اليوم، يبدون شديد اندهاشهم، كلما سمعوا مواطنا عربيا يتحدث أمامهم بالعربية لوجود من يتكلم سواهم " بالمالطية".

ثم جاء الإسلام في القرن السابع الميلادي، ففتح أبواب الديار المغربية على مصراعيها، أمام العربية لغة القرآن والحديث، والعلوم في شتى المجالات. ولم تلق العربية أية معارضة من اللهجات المحلية التي بقي الناس يستعملونها في شؤونهم الخاصة، ويعتمدون العربية في سواها، طيلة العهد الإسلامي. ومما زاد انتشار لغة القرآن بالجزائر سهولة، وتداولها شرعية، احتكار السلطة السياسية المطلق، من طرف سكانها الأصليين، على رأس مختلف الدول التي توالت بها على الحكم، بدءا من الرستميين، والحماديين، إلى دولة الزيانيين وبقي الأمر على ما هو عليه في العهد العثماني.

وكانت عواصم هذه الدول وهي تيهارت، وقلعة بني حماد، والناصرية، وتلمسان، مقصد علماء المسلمين وغير المسلمين، الوافدين من المشرق، والمغرب، والأندلس، وصقلية، و"سوق عكاظهم"، تعقد بها الندوات الفكرية، فتشهد ضروب الجدل الكلامي، والعروض الشعرية، وتبادل الآراء والتجارب. وقد ألفت بأمصارها، الموسوعات القيمة، وأمهات الكتب، كرسالة ابن رشيق المسيلي، ومقدمة ابن خلدون.

وبقيت العربية طيلة العهد الإسلامي، سيدة الأوضاع بالجزائر، لا ينافسها ند، ولا يشكك في شرعيتها أحد. فبها تتم العبادات، وتدون المؤلفات، وتسجل العقود والوثائق، وتصدر الأحكام. يتعلمها الناس منذ نعومة أظافرهم داخل الأسرة، والكتاتيب المنتشرة بكثافة في البوادي، والقرى،والأمصار. ويتعاطى النابغ في علومها من التلاميذ, تعليمه الثانوي والعالي، بمؤسسات توجد على وجه الخصوص بكبريات المدن، وداخل أسر اشتهرت بالعلم، وتطوعت لنشره متكفلة برواتب الأساتذة، والأئمة، ومنح الطلبة، وبطعام الجميع ومأواهم. وهناك النشاط الثقافي الذي تضطلع به كل من الطرق الصوفية الكبرى المنتشرة عبر القطر، كالقادرية، والتيجانية، والرحمانية، والطيبية، والعديد من الزوايا ذات الإشعاع المحلي، والمتمركزة عامة، حول أضرحة بعض مشاهير شيوخ العلم وقادة الجهاد.

وما زال بعض هذه المعاهد يواصل رسالته التربوية إلى اليوم، كجامعة الكتانية بقسنطينة، وزوايا منطقة القبائل، ومنها شلاطة، ومدارس مستغانم، وعين ماضي، وزاوية مزونة، والقطنة، ووهران ومسجد أبي مدين بتلمسان.

وخلاصة القول في موضوع اللغة العربية بالجزائر قبل الاحتلال، أن كل الوثائق، والشهادات، بما فيها الصادرة عن قادة جيش الاحتلال، تجمع على أن التعليم كله بالعربية، كان قبل 1830 في مختلف مستوياته الابتدائية، والثانوية، والعالية، في حالة جيدة عبر مختلف مناطق البلاد، مع معدل لعدد المتمدرسين يفوق ما كان موجودا بالكثير من البلدان الأوربية، ومنها فرنسا المكلفة بمهمة إخراج " الأهالي" من غياهب الجهل والضلالة.

مآسي اللغة العربية

تم احتلال فرنسا للجزائر في فترة تميزت بتفوق أوربا على العالم العربي الإسلامي في جميع مجالات الحياة المادية، وخاصة في ميدان العلوم العصرية، والتكنولوجية الحربية. ومن ثم تحرش الغرب على دار الإسلام، وغزوه الاستعماري لها، واقتسامه لمختلف مناطقها. وشاءت الأقدار أن تكون الجزائر من حظ دولة نصبت نفسها البنت البكر للكنيسة، وحاملة راية القيم الغربية، وصاحبة الإرث الثقافي المتألق، تتباهى بثرائه، وتطمح إلى تعميم مضامينه على باقي شعوب المعمورة، وخاصة منها المنتمية إلى العالم العربي الإسلامي.

ودار الإسلام في اعتقاد فرنسا والغرب، رمز "للغيرية" ومصدر التعصب الديني، والتخلف الفكري. وشعوبها رازحة عموما، تحت نير عبودية النظام العثماني، مكبلة عقول أفرادها بقيود بدعة دينية ضالة مضللة. فهو عالم آيل حتما إلى الاندثار إذا لم يسارع الغرب اليهودي–المسيحي إلى تحريره من نفسه، ومن مظاهر البؤس والتخلف، ببسط وصايته عليه، ونشر رسالته الحضارية في شعوبه.

ولا يمكن لأي مؤرخ، أو باحث أن يفهم الأسباب التي حثت المستعمر الفرنسي على بدء مغامرته التوسعية بالجزائر، والمجازر الوحشية التي ارتكبها طيلة الاحتلال ضد شعبها قصد إبادته على مرأى ومسمع الدول الغربية الأخرى، وجهوده الجنونية لمسخ شخصية الجزائريين، وتجريدها من مكوناتها، دينا، ولغة وتقاليد، ولا سرعة تخليه عن باقي مستعمراته إبان الحرب التحريرية، للحفاظ على "عمالاته" الجزائرية، إذا هو لم يراجع بإمعان تطور العلاقات الجزائرية–الأوربية منذ العهد الإسلامي. فهي الكفيلة بإحاطته علما بالدور المتميز الذي تولاه الجزائريون في الفتوحات الإسلامية شمالا في اتجاه الأندلس، وأرض الغول، وصقلية، وهي ديار مسيحية، وفي نشر الدين الجديد جنوبا، في بلاد السودان، وتأطير

الجاليات الإسلامية عبرها، بواسطة الطرق الصوفية، والدعاة المشاهير أمثال عبد الكريم المغيلي في القرن السادس عشر، والإمام عبد الحميد بن بديس في القرن العشرين. كما ستمكنه هذه المراجعة من الاطلاع على مدى ضراوة الحروب المتواصلة التي خاضها الشعب الجزائري، لإنقاذ مسلمي الأندلس من التنصير الإجباري، أو الإبادة من جهة، وإفشال السياسة التوسعية للدول الأوربية في حوض البحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية.

فهذا الجهاد المستميت، الذي يجهله الكثير من الناس، هو الذي جعل الجزائر تبدو في نظر الشعوب الغربية عبر التاريخ، رمزا للعداء والتحدي، فحث إسبانيا، وهولندا، وبريطانيا، والنمسا، وحتى الولايات المتحدة، على محاولة غزوها، للقضاء على دورها في الدفاع عن الديار، وصيانة المعتقد. ومما لاشك فيه، أنه لولا الاحتلال الفرنسي في 1830، لكانت الجزائر تعرضت لغزو دولة غربية أخرى، في خضم صراع حضاري مفتوح، وسعي محموم لأوربا وراء مواد أولية تعوز صناعاتها العصرية الناشئة، وأسواق دولية مربحة لفائض إنتاجها. وكانت الجزائر تمثل في نفس الوقت، الخصم الحضاري العنيد، والبلد المترامي الأطراف الزاخر، بالثروات الطبيعية.

فلا غرابة بعد ما تقدم، وإذا حصرنا الصراع في جانبه الحضاري،أن تصبح قيم الشعب الجزائري وتقاليده، ومكونات شخصيته من العناصر التي تجعل واجب القضاء عليها يكتسي الأولوية المطلقة في مخططات المحتل الفرنسي. ولقد شخصها فوجدها متمثلة أساسا، في تعاليم الإسلام، ولغة الضاد أداة ترويجها المثلى، فشن عليها حربا لا تقل ضراوة عن حملات الإبادة التي سلطها على السكان. وزاده أملا في تحقيق رسالته التبشيرية، أن الجزائريين كانوا مسيحيين قبل أن يفرض عليهم "الدين المحمدي"في اعتقاده، فرضا، وأن الحرف اللاتيني كان السائد فيهم دون سواه لمدة عشرة قرون كاملة، وما زال ماثلا بكثافة على صخور الآثار الرومانية البزنطينية الحافلة بها مدن البلاد وبواديها. والمثير للدهشة، أن هذا الخط اللاتيني لم يعد يثير في الأهالي أي اهتمام، ولا يلقى فيهم، من يحسن تهجئته، أو يعيره تلك العناية التي يليها للحرف العربي، حيث يسارع كل جزائري إلى انتشاله من الأرض كلما وجده ملقى عليها، ليضعه في مكان طاهر مأمون، بعد تقبيله بخشوع، في حركة عفوية تنم عن الحب، وعظيم الإجلال.

إجراءات المحتل التعسفية ضد العربية

باشرت قوى الاحتلال حربها الصليبية ضد مقومات الشخصية الجزائرية، قبل أن يجف حبر وثيقة استسلام العاصمة التي تعهدت بموجبها للشعب الجزائري باحترام أملاكه، ومعتقده، وتقاليده. فأخذت في إطار سياسة مبيتة، محكمة، تذبح أبناءه وتنهب أمواله، وتحول مساجده، وجوامعه إلى كنائس، ومحلات لهو ومجون، واصطبلات لخيول جندها، وتحظر التعامل الرسمي بالعربية، والحج إلى البقاع المقدسة،

وتغلق المدارس, والمعاهد، وكل مراكز الإشعاع الثقافي. وتطارد الأساتذة، والأئمة، والمثقفين. وما دام التعليم في ذلك الوقت شعبيا ومجانا عبر التراب الوطني، تتولى تكاليفه أسر من أهل البر والتقوى، ومداخل الأملاك المحبوسة لصالح العلم والعلماء، والمساكين والفقراء، والشيوخ والعجزة، ولأعمال خيرية أخرى، فسارعت سلطات الاحتلال إلى بسط يدها على ديوان الأوقاف، في انتهاك سافر للدستور الفرنسي القاضي بالفصل بين الدين والدولة.

صمود اللغة العربية أمام إجراءات التعسف

ولم يرضخ الشعب لهذه القوانين الجائرة، خاصة تلك المتعلقة بالتعليم. فلغة القرآن وسيلته المثلى لمعرفة دينه ودنياه. فهي التي تعلمه قواعد التعامل مع الناس فيسعد في هذه الدنيا، وتبين له واجباته إزاء خالقه فيسعد بنعيم رضاه في الآخرة. وراح يخوض دفاعا عنها، وعن تراثه الثقافي، معارك تعتمد أسلوب حرب العصابات القائمة على الكر والفر، من خلال مواجهات صريحة حينا، ومراوغات خفية، حينا آخر. واستطاع هكذا ورغم كل المضايقات، أن يفسح للغته، المجالات التي تتمتع بها باقي لغات العالم. فضمن لتعليمها في الجزائر، حدا أدنى من الوجود، في الكتاتيب، والزوايا الصوفية، والمدارس الحرة، الخاضع معظمها لجمعية العلماء المسلمين، وباقيها لحزب الشعب الجزائري المطالب صراحة بالاستقلال. وكانت هذه المؤسسات التعليمية معرضة جميعها لرقابة الإدارة الصارمة، ولتحرشاتها، وقرارات الغلق المتكررة. ومع هذا، فكانت تستأنف نشاطها المقدس كلما لقيت لذلك سبيلا. والفضل في إنقاذ العربية، عائد للشعب عامة، ولتضحيات أساتذتها، وشيوخها، على وجه الخصوص، حيث فضلوا على الفرنسية "لغة الخبز" والعيش الرغد، خدمة قضية مقدسة تعرضهم حتما، إلى الاضطهاد، والسجن، والاغتراب عن الأهل والديار، وشظف العيش.

وبقيت اللغة العربية قائمة بالجزائر، تستعمل دون سواها، في الحياة اليومية داخل البيوت، وفي الشارع، ودور العبادة، وأماكن العمل والنزهة، وفي السجون والمعاقل. وقابل الناس لغة المستعمر، وتعليمه، وحملات تبشيره، وتغريبه، بأشد مظاهر المقاومة الجماعية. ولم يلتحق بمدارسه على ندرتها، وبعد حين، إلا القليل من المواطنين وبعد تأكدهم من خلو برامجها من كل أساليب التنصير. وزاد من أسباب انتعاش العربية، وتجديد أساليبها، حفظ العامة للقرآن الكريم, والأحاديث النبوية، والأمثال الشعبية، وتكاثر الأغاني الظرفية الواردة صدى لأحداث الساعة، والأناشيد الدينية والوطنية، ونشاط الحركة الكشفية التربوي، ورواج الشعر، الملحون العامي منه، والفصيح الخاضع لقواعد العروض وزنا وقافية. وقد اكتسبت بعض قصائده، ودواوينه الشهرة العالمية، كاللهيب المقدس لمفدي زكرياء.

وجاءت الصحافة بعد الحرب العالمية الأولى، لتدعم هذه الصحوة اللغوية، من خلال بعض الجرائد تصدر هنا وهناك، عبر القطر، بالعربية وأحيانا باللغتين، تتناول القضايا المحلية، ومواضيع أدبية. لكن الإعلام السياسي الملتزم، فالفضل فيه يعود إلى حزب الشعب الجزائري، وفي دبلجته العربية، إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ البشير الإبراهيمي، من خلال عناوين عدة، نذكر منها على وجه الخصوص، "الشهاب" و "البصائر". ثم هناك بعض الإصدارات السياسية، والأدبية، من جرائد، ومجلات، وكتب يستقدمها الناس على الدوام، سرا وعلانية، من أقطار المشرق والمغرب. وللتذكير فإن فرنسا لم تستطع أن تقطع الشعب الجزائري عن أشقائه العرب والمسلمين، رغم ما وظفته من وسائل جهنمية. فبقي بعض الشبان يلتحقون في دراستهم بجامعات القرويين **بفا**س، والزيتونة بتونس، والأزهر بمصر فيتخرجون أساتذة وغالبا ما يلتحقون بسلك التعليم الحر في الجزائر. كما هناك من كبار علماء الجزائر من كان يعقد حلقات التعليم في كبريات الجامعات الشرقية وفي الحرمين، من أمثال الأمير عبد القادر، والشيخ الورثلاني، وعبد الحميد بن باديس, والإبراهيمي، وغيرهم وهم كثر.

ومن دعائم اللغة العربية في أحلك ظروف الاحتلال، دور المسرح الشعبي، وتوظيفه لاحقا من طرف الأحزاب السياسية، والحركة الكشفية، ومدارس التعليم الحر، لصالح القضايا القومية. فكانت فرق التمثيل تجوب مدن القطر، وقراه، وبواديه، ساعية إلى الترفيه عن الناس، ورفع مستواهم السياسي عن طريق الضحك، والحديث الصريح حينا، و التلميح والرموز أحيانا أخرى، تفاديا للرقابة الرسمية. ولقي التمثيل المسرحي واللغة العربية عامة، سندهما الحاسم في انتشار الإذاعة المسموعة، ودخول أجهزة التقاط برامجها بيوت العامة. وساهم هذا الاكتشاف في كسر الطوق الثقافي المضروب على الشعب منذ الاحتلال، حيث صار بإمكان المواطنين متابعة الأخبار العالمية، والوطنية على وجه الخصوص، في صيغها المنقحة وبعيدا عن الرقابة الرسمية، عبر محطات البلدان الشقيقة، في لغة عربية فصيحة, وبأصوات مهذبة. وما زال جيل نوفمبر يذكر إلى اليوم، فضائل "صوت الجزائر الحرة المكافحة" و"صوت العرب"، وباقي الإذاعات العربية عامة، على ثورته المسلحة، ودورها في التعريف بها، وتمرير رسائلها.

كما أن العربية بقيت لغة الوعظ والإرشاد الوحيدة في المساجد، والمدارس، وخارجها، والسلاح الحاد المفعم للجماهير، الذي طالما وظفته الأحزاب الوطنية في حملات توعيتها قبل أول نوفمبر، وجاءت الثورة فعبأته لشحذ همم المجاهدين، وتمرير مختلف تعليماتها إلى الجماهير في مأمن من الأعداء الذين كانت غالبيتهم الساحقة تجهل العربية، لطول ازدرائهم بها، وتباهيهم بثقافتهم. ولم تتفطن فرنسا لطيش سياستها الثقافية هذه في الجزائر، وإحجامها عن تدريس ثقافة الجزائريين لأبنائها، إلا في خضم المواجهة الشاملة

التي تميزت بها ثورة التحرير المظفرة، حيث اتضحت مراقبتها لأنشطة الثوار، ومراسلاتهم، بينما كان بإمكان أي جزائري فهم لغتها واتقاء شرورها.

ممارسات العدو للانتقاص من شأن العربية

يبدو أن الغربيين مجبولون على الغرور، والتنكر يشيدون مفرطين، بأمجادهم، ويحقرون من شأن الآخرين، محاولين إنكار مزايا غيرهم، وفضلهم عليهم. ويزداد هذا الجحود جلاء، كلما تعلق الأمر بالعرب والمسلمين. فالحضارة الأوربية آخر الحضارات البشرية، اقتبست بصيص نورها في نهاية القرون الوسيطة، من فيض الفكر العربي من علوم، وفنون، ورقي، كانت تشع متألقة وقتها، داخل أوربا في كل من الأندلس، وصقلية، وفي بلاد الشام مقصد الجيوش الصليبية. ومازال الغربيون إلى اليوم، لا يرون في العرب إلا أقواما ترجموا دون كبير فهم، أو إثراء، أو تجديد، كنوز اليونان الفكرية، بينما العكس أقرب إلى الصواب، حيث لا يعود أقصى ذكر لليونان، وحضارتهم في التاريخ، إلى أبعد من القرن السابع قبل الميلاد، بينما يضرب تاريخ أساتذتهم، من كلدانيين، وآشوريين، وسوماريين، ومصريين، وفينيقيين، جذوره في الماضي السحيق، أي مئات القرون قبل المسيح. وهي في مجملها شعوب مشرقية ذات أصول عربية. ويزيد هذا النكران حدة، وفحشا، عندما يكون صادرا عن فرنسي منتش بنصره، في اتجاه جزائري، خانه الحظ فصار، مغلوبا على أمره.

ومعلوم أنه ما استتب الأمر للمعمرين بالجزائر، حتى أخذوا يحقرون من شأن كل ما هو جزائري، في القول، والعمل، والتقاليد، والأزياء والمحيط. فجعلوا كل ما هو عربي، يرمز إلى الكائن القبيح، الناقص، المجبول على الخنوع، غير الصالح للتطور. ومن ثم قولهم:"الطبع العربي"،"والعمل العربي"، و"الفوربي العربي" و"البقرة العربية" و"التين العربي أو البربري". ومن الطبيعي في هذا السياق، أن يضموا اللغة العربية، إلى موكب الأشياء الممقوتة، رغم أنها سر بيان القرآن وتبيينه، علمت الشعر سحره، ومكنت الخطيب من الاستحواذ على عقول ملايين السامعين وقلوبهم، تزخر بالنفائس الفكرية، وتدين الحضارة العالمية لابتكارات علمائها، ولتراجم باحثيها. ولم يرع لها المعمر أي احترام أو تقدير، فناصبها العداء وسلط عليها ضروب التهميش والإقصاء.

وشر ما عوملت به لغة الضاد في بلدنا، محاولة المحتل إلحاقها باللغات البائدة، مثل اليونانية القديمة، واللاتينية، وتعويضها باللهجات الجهوية المحلية، اعتمادا على قواعد نحوية وصرفية، ابتكرها ابتكارا، تلقن بالفرنسية، وبنفس المصطلحات الخاصة باللاتينية. فعوضوا مثلا، المنادى بـ " le vocatif » والمفعول به بـ "accusatif' والمضاف إليه بـ "Le génitif" وبينما كانت الفصحى غائبة قانونيا من التعليم الابتدائي، فقد أجبر التلميذ الجزائري على "دراسة" اللغة العامية من خلال حصتين في

الأسبوع، توكل إلى "شيخ العربية" وكأنه لم يكن يختار غالبا لهذه المهمة، إلا لجهله قواعد التعليم، وسوء تصرفه، وشذوذ هندامه، قصد تنفير التلاميذ من لغة الضاد، وتشويه صورتها أبد الدهر في وجدانهم. ويزيد هذا الإخراج فعالية، أن نصوص دروسه، سخيفة، ركيكة، مثيرة للسخرية، وأن حصصه تأتي مباشرة بعد دروس المواد الفرنسية، الموكولة دائما، إلى معلمة غاية في الكفاءة المهنية، وعلم النفس، تشع صحة، وأناقة، مصحوبة في تجوالها داخل القسم، بفيض من الروائح العاطرة. ويلقى التلميذ نفسه هكذا، مجبرا لاشعوريا، على إجراء مقارنة بين حالتين، تخرج منها لغة الأجداد الخاسر الأكبر. وهناك، من بين كهول جيل الاستعمار، من لا يزال إلى يومنا هذا، يكن للعربية، جراء هذه الممارسات الخفية، الخبيثة، الكراهية المطلقة، ويشعها في محيطه.

مآثر اللغة العربية أثناء الاحتلال

لقد استطاع الاستعمار الفرنسي بعد طول الحظر الذي فرضه على التعليم العربي، والمجهودات الجبارة التي بذلها بشأن تعميم لغته، ونمط عيشه، في جميع مجالات الحياة اليومية، أن ينال من اللغة الوطنية، وسلامتها، وقدرة مواكبتها للمستجدات بإيجاد الأسماء المناسبة لها حين ظهورها، خاصة في كبريات المدن، ومراكز تجمع المعمرين. فصار حديث الجزائريين خليطا من المفردات الوطنية والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية، تماشيا مع أصل النازحين الأوربيين، وكثافة وجودهم عبر التراب الوطني. لكن أدنى اجتهاد من المواطنين لاجتناب الدخيل من العبارات، يعيد لكلامهم أصالته، التي تشاركهم فيها شعوب العالم العربي قاطبة. فتضمن لهم تضامنهم في السراء والضراء، وهذا ما جعل العرب والمسلمين يقفون إلى جنب الشعب الجزائري طيلة حربه التحريرية ويمدونه بضروب سندهم المادي والمعنوي، والسياسي. ومن المؤكد أن حفاظ الجزائريين على شخصيتهم، ومقوماتها، وخلاصهم من مؤامرة المسخ، والفرنسة، والتنصير، وكل ضلالة ايديولوجية، يعود الفضل فيه إلى لغة القرآن، وشدة تمسكهم بها، ومدى تغلغلها في وجدانهم.

فلغة الضاد جعلها الله وسيلة مثلى لنشر الإسلام دون سواه من المعتقدات. ولقيت في الماضي كل المحاولات الرامية عندنا، إلى "جزأرة" معتقدات غريبة عن الديار، أكبر عقبة لانتشارها، في رفض اللغة العربية استيعاب رسائلها. ومن ذلك الماركسية بعد انتشارها في "الطبقة الكادحة" من أوربيي الجزائر. ولقد عجزوا عن تعريب بعض عباراتها المعبئة بالفرنسية وغيرها، للهمم، المحمسة للمناضلين، كصيغة تحيتهم عند لقاء بعضهم لبعض: "Salut camarade"، فترجمتها الحرفية "تحية يا رفيقي"، تكون ضربا من الإسفاف، لا يساوي في شيء التحية الوحيدة المعمول بها بين الجزائريين، والمسلمين، وهي "السلام عليكم

ورحمة الله يا أخي". لكن مضمون العبارة بالعربية، مفعم بالمفهوم الديني، مما يجعلها في تناقض سافر مع المادية الماركسية، وأغراضها العدوانية ضد الإسلام.

نظام التعليم المزدوج "La Médersa » والغرض منها

غير أن الدارس لوضع اللغة العربية، إبان الاحتلال، يفاجأ بوجود استثناء للقاعدة، متمثل في معاهد أنشأتها الإدارة الاستعمارية، عقودا معدودة بعد غزوها للبلاد، تشتمل برامجها على العديد من العلوم العربية الإسلامية، إلى جانب دروس بالفرنسية. وتولت هذا التعليم المزدوج ثلاث مدارس وزعت على القطر، في كل من قسنطينة شرقا، والعاصمة وسطا، وتلمسان غربا. وعرفت كل منها ب "المدرسة". « La Médersa »

يجدر التنبيه بشأن هذا التكوين الجامع بين الثقافتين، أنه لم يقرر لسواد عيون الجزائريين، أو تقديرا لثقافتهم الأصلية، لكنه جاء خدمة لمصالح المحتل، وتحقيقا لمآربه. فهو يرمي أساسا، إلى تخريج فئة من الجزائريين، تكون حلقة وصل بينه وبين الأهالي في تطبيق أحكامه فيهم، وحل القضايا التي للشريعة الإسلامية فيها دخل، سواء تعلق الأمر بالعبادات أو المعاملات، ولترجمة تعليماته، والنصوص القانونية، والوثائق الإدارية من الفرنسية، وإليها. وفيهم من يوظف في التعليم العربي بالقسط، والمناهج التي تضمن إيجاد الخلف، لتأدية نفس المهمة.

وتتموقع هذه المعاهد، في مستوى تعليمها، في منزلة بين المنزلتين،أي تجمع بين مواد تدرس عادة بالثانويات, كالبلاغة, والتاريخ، والجغرافية، والنحو، والصرف، والأداب، وأخرى خاصة بالتعليم الجامعي، كالفقه الإسلامي، والقانون الفرنسي. ورغم أن المواد العلمية من كيمياء، وطبيعة، وفيزياء، ورياضيات، منصوص عليها في البرامج، وموكول تدريسها لأساتذة فرنسيين، فهي ميدانيا، غائبة كليا، لمنع التلاميذ من مغبة الحصول على شهادة الباكالوريا والالتحاق بالجامعة.

ويميز مناهج "المدرسة" تركيزها المفرط، على الحفظ، والذاكرة، والتسليم بالمنقول، ورأي السلف، واجتنابها المنهجي لكل ما يسائل العقل، أو يشحذ الهمم، إلا نادرا وباجتهاد فردي من بعض الشيوخ، ومبادرة منهم. ومن أهم هذه الدروس الواجب حفظها على طرف اللسان، تلك الخاصة بالفقه الإسلامي والواردة في لغة صعبة التراكيب، دقيقة المعاني، من بيوع، وهبات، ووقف، ونكاح، وطلاق، وفرائض، وحج، وعمرة وزكاة. وكان الفقه مادة أساسية يدرس بكثافة، قصد تخريج أعوان بالمحاكم الشرعية المكلفة بفض القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية للمسلمين، علما أن"القبائل الكبرى"غير معنية بالشريعة الإسلامية، فقد أخضعت الإدارة سكانها منذ البداية، إلى القوانين الفرنسية، وبعدها إلى ما سمي ب " القانون البربري" المعتمد على

العرف والتقاليد. وبإمكان المتخرجين من المدارس الثلاث أن يلتحقوا عن طريق المسابقة، بمعهد الدراسات العليا الإسلامية التابع بالعاصمة، للجامعة الوحيدة في القطر.

وشهد النظام المطبق على هذه المدارس، تطورات عدة في مستوى مدة الدراسة، وعدد الطلبة، وانتماءاتهم العائلية، ومضمون البرامج، ونوعية الشهادات، ومقاصد التكوين. فبعدما كانت فترة التحصيل فيها لا تتجاوز الأربعة أعوام، فإنها صارت ستة، فسبعة، مع اتساع حق الانخراط إلى غير أبناء "الأعيان"، كما كان عليه الأمر سابقا، وتحولت هذه المؤسسات في خاتمة المطاف، إلى ثانويات بالاختصاصات الموكولة للتعليم الثانوي في ذلك الوقت، وتأهيل خريجيها للالتحاق بالتعليم الجامعي.

ويبقى السؤال مطروحا لمعرفة ما إذا حقق هذا النمط من التعليم مآرب فرنسا في تكريس وجودها، وطمس معالم الشخصية الجزائرية، أو أدى بالعكس إلى نقيض ما كانت تتوخاه منه. ونفس السؤال يطرح لمعرفة الأسباب التي جعلت الناس يتقبلونه.

والجواب أنه ما كان من الشعب، أمام إرادة المحتل القضاء الصارم على معالم الحضارة العربية الإسلامية بالجزائر، إلا محاولة استغلال كل فرصة تسمح له الحفاظ على شعرة معاوية، مع مكونات شخصيته، ويميزه عن الغزاة، ولو اتسم بالشبهة، وطابع التخلف، والسذاجة ومظاهر الفولكلور المثيرة للضحك والسخرية. ومن ذلك مثلا، تهافت العامة وقتها، على التصوف، وبعض التصرفات الشاذة كالوشم عند النساء، وحلقات الشطح عند الرجال. فما دام الاستعمار لم يكن يبدي أي احتراس من "الطرقية"، ومناهجها التقليدية في تعليم القرآن، وحلقات "تهوالها"، سارعت الجماهير إلى الانخراط في صفوفها, بحثا فيها عما بقي من دينها، ولغتها، وسلوك وتصرفات تميزهم عن الأوربي، وتؤكد رفضهم لسياسة الاندماج والفرنسة. ولا يستبعد أن يكون الناس قد قبلوا في البداية، التردد على ما سمي ب"المدرسة"، وهي من صنع الإدارة، لنفس الأغراض أي لأنها تدرس استثنائيا العلوم العربية والإسلامية.

أما إيجابيات هذا النمط من التعليم، فلا أظن أن هناك من ينكره. فقد ساهم بقسط وافر في نشر اللغة الفصحى، وتطوير التعليم العربي عامة، باعتماده مناهج استفاد منها القطاع الحر لتعليم العربية. كما أنه أحدث جوا من التنافس بين طلبته، وطلبة باقي المدارس الحرة, وخاصة منها، معهد بن باديس، والكتانية، بقسنطينة. وقد تخرج منها في مجال الدين واللغة، والنضال السياسي والعسكري شيوخ، وأساتذة وقادة من أمثال الشيخ مصطفايي، وبن زكري، ومزيان والشهداء محمد الأمين لعمودي، والعقيد لطفي، ومن مؤسسي اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، وأعضاء أول مكتب له بالعاصمة: المغفور لهم الرائد أحمد تاوتي وعمارة رشيد، وصابر، ولونيس، وقد توفوا جميعا في ميدان المواجهة المسلحة. وأنشأ هذا المكتب بالذات الذي كنت فيه عضوا مكلفا بالنشاط الثقافي، حلقات دروس للغة الوطنية، ومحاضرات حول

الحضارة الإسلامية في صالح كل الطلبة المنتمين وقتها، إلى مختلف شعب جامعة العاصمة، وهذا في خضم الحرب التحريرية، وقبيل إضراب 19 مايو 56 عن الدراسة الذي تعود المبادرة فيه إلى نفس المكتب.

ولعب غداة الاستقلال، خريجو هذا التعليم المزدوج مع طلبة معهد بن باديس والزوايا، وكل مدارس التعليم الحر للعربية، دورا هاما في بعث اللغة الوطنية، وتدريسها بالجزائر، وإحياء الثقافة العربية الإسلامية، بعد غياب طال ما طال كابوس الاستعمار.

الخاتمة

يعود الفضل في دخول اللغة العربية، الديار الجزائرية، وفي جلوسها على عرش الصدارة في جميع مجالات الحياة الوطنية، الدينية منها، والاجتماعية، والثقافية، منذ الفتوحات الإسلامية، إلى تسامح سكان البلد، وصدق تبنيهم للإسلام، ولما جاءت به هذه اللغة، من قيم سامية، وتعاليم تحث على الأخوة بين المسلمين، وتفتح على الجميع خاصة إذا لقيت من شركائها، الاحترام المتبادل، وصدق التعاون. وكل صراع مفتعل بين ممثلي الثقافة الجزائرية، لا يستفيد منه إلا الأعداء، في خضم عولمة تطمح إلى القضاء على الثقافات الوطنية، وصراع حضاري جعل ضمن أولوياته النيل من الإسلام وشعوبه، وتعاليمه، قصد تكريس ثقافة الدولة العظمى، ومفهومها للديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحتى نمط سلوكها . وعلى الشعب الجزائري، أن يبذل اليوم نفس الجهود التي مكنته بالأمس من الحفاظ على دينه ومقومات شخصيته، ضد سياسة مسخ، وتغريب رهيبة، إذا هو أراد أن يكون في مستوى الرسالة الحضارية المنوطة به، والعهد الذي أخذه على نفسه إزاء لغته يوم بادر بمطالبة دول العالم الأعضاء في منظمة اليونسكو، اتخاذها لغة عمل دولية، فاستجابت له في جمعيتها العامة المنعقدة في خريف سنة 1968. ولقد لقي مشروع القرار الجزائري، مساندة المجموعة العربية برئاسة السيد ثروت عكاشة ممثل مصر، والكتلة الإفريقية التي كان يرأسها السيد مختار مباو، ممثل السينغال وقتها. وحسبي شرفا أني كنت يومها أحد أعضاء الوفد الجزائري، مع وزارة التعليم، الإخوة سراج عمر، وحميش بوزيد، والمرحوم عنابي. وستكون عملية الصمود، وشروط النجاح في إنقاذ لغة الضاد، شاقة، وتقتضي التضحية الجماعية وواجب المسلمين جميعهم، ألا يهنأوا ولا يستكينوا وأن يثقوا بأن وعد الله حق إذ قال وقوله الحق " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"